رحلة إنسانية

نجاة زعيتر
كاتبة جزائرية

خصتني بعنايتها هذا الصباح، أعدت لي قهوتي الثقيلة، أخرجت لي بذلة الأحد، مسحت حذائي الرياضي، ركزت جيدا على بقعة كنت قد تجاهلتها منذ مدة ولم أجتهد في إزالتها.

قالت لي عندما أدرجت ملاحظتي وهي تغادر إلى المسبح: لا يهم فنحن لا نقيم بأحذيتنا.

لم تلاحظ قلقي وإصراري على الإعتناء بالصغير ليل نهار، أمس استيقظت مرتين، الشيء الذي لم أفعله أبدا منذ ولادة ابننا، أي منذ سنتين.

سألتني إن كنت بحاجة إليها قبل أن تغادر؟ لكنني اكتفيت بتحريك رأسي نفيا.

التقيت بها في مطار العاصمة الفرنسية، كانت عائدة من رحلة إنسانية من السودان، وكنت أحمل القليل الذي أملكه وجئت باريس طالب علم، تلك حجتي للهرب من قريتي العائمة في الفقر والتخلف، لم أخجل من الرد على ابتسامتها، الشيء الذي كنت لا أجرؤ عليه قبلا.

هي لا تستطيع أن تنكر أنني كنت لطيفا ولا قريبا إلى قلبها، نفذت كل رغباتها، عاشرتها بمقاييسها، لم أناقشها يوما ولم أفرض عليها شيئا من ثقافتي التي يبدو أنني استغنيت عنها تماما منذ وضعت رجلي على أول درج في الطائرة التي أقلتني إلى هنا.

أحيانا أحس أنها تستفزني أن أفعل وأعارضها، فقد كان يجب أن أحتج حين أطلقت على ابننا اسم "جوهان".

تزوجنا وأنا طالب، جاء باريس بجواز سفر وكثير من أحلام الطلبة الأجانب التي سرعان ما تتيه وتتبدد في الشوارع الباريسية بين فواتير الغرفة، ووجبات المطاعم، وغسل الثياب، وبعض السجائر، وزجاجات "بيرة" من ذلك الصنف الرديء البخس ثمنا.

لكنني حين التقيت بها، هي الفرنسية المحبة للبشر دون التدقيق في جنسياتهم وألوانهم، لم أتردد أبدا في التدرب على بعض الرقصات الحديثة كي لا أخجل من مرافقتها إلى النوادي التي يرتادها الطلبة في العادة، لكنني لم أخطط للتورط معها في بعض تفاصيل حياتها التي لا تشبه في شيء تفاصيل فتاة باريسية في العشرينات من عمرها، "آن" لم تكن تجيد الرقص فحسب، فهي ذكية دون خبث، وسع قلبها مشاكلي العويصة وأسئلتي الوجودية، ملامحها الفاتنة التي استغنت عن كل أنواع الماكياج، كانت فقط تثير قلقي، أما أناقتها البسيطة فهي لا تستحي أبدا من الاعتراف بأنها تكتفي بالثياب المستعملة التي تقتنيها من هذه الجمعيات التي تجمع التبرعات بكل أشكالها من ثياب وأثاث وكتب وتعيد بيعها بأثمان زهيدة لتشتري بعائداتها مواد غذائية تتبرع بها على المشردين وكل من عبثت بمصيره عواصف الحياة المجهولة، بينما مرتبها كممرضة ليلية يخول لها الدخول محلات "شانيل" لو شاءت دون تردد.

وهي تدعوني إلى بيتها لأول مرة طلبت مني أن أترك سجائري خارجا، ثم شرحت لي بأنها لا تحب اقتناء ما يزيد عن حاجتها ولا ينفعها في شيء، حتى لا أفاجأ ببيتها الخالي من الأثاث "الديزاين" كما قد أتوقع.

بل أكثر من ذلك، فأغلب أثاثها مما يتخلص منه بعض جيرانها المغرمين بالديكور الجديد، وما قد تعلن عنه هذه المواقع المتخصصة في عالم المجاني.

إنه أسلوب حياة يقتسمه أغلب الشباب الأوروبي الحديث الذي لا يريد أن يساهم في تحميل الأرض من القمامة أكثر مما تحمل، أنا الذي لا يحمل من المبادئ سوى إنقاذ نفسي والاعتناء بها، وتسليتها إن وجد!

قالت لي ذات مرة رميت فيها كيسا من البلاستيك: تخيل أن هذا الكيس سيستمر في تشويه الأرض لآلاف السنين، عدت التقطته، لم أعترض، كانت على حق، وكنت كالعادة لا أرى سواها، لكنني لم أعترف لها أنني أرمي بكل كفاحها من أجل البيئة في أول مزبلة تصادفني مع الأكياس والقوارير والأوراق والسيارات وبقايا المصانع.. و.. و.. ولكنني بدل ذلك أمنت بعقيدتها واشتريت دراجة قديمة لأرافقها في جوالاتها الأسبوعية خارج باريس لجمع أكياس "البلاستيك" التي تنمو على الأشجار كفواكه سامة بألوان متعددة، هذا وصفها لمنظر الأكياس المتشبثة بأغصان الأشجار.

أسعدتها مبادرتي وفهمت أنني أخيرا وجدت السبيل إلى قلبها.

لوحة للفنانة نهاد الترك

أخرج من هذا الجسد

صالحة العراجي
كاتبة جزائرية

أشتاق إلى الليل وما يحمله إليّ من أسرار ورؤى غامضة، تتنازع فيها كومة من الأحاسيس المتناقضة متداخلة الصور لأشخاص أعرفهم وآخرين غرباء، بعضهم ينتمي إلى ماض سحيق وضاح الملامح رغم الأيام المتداولة والزمن المهرول، بكل أحداثه الشبيهة بشلال عظيم متدفق يصب في منبع واحد في قلب صغير أعيته نبضاته المتلاحقة، وبعضهم إلى حاضر عابر والبعض الآخر لا أتبين ملامحهم قادمين من مكان عميق اسمه الحلم.. أجالسهم، أحدثهم، أطير بعيدا بعيدا برفقتهم، قد أعود وفي نفسي طمأنينة عجيبة وقد أعود متعبة وكأنني عبرت في سويعات النوم تلك كل الأزمان وكل الأماكن.

عناء في النهار وعناء في الليل والحياة كلها عناء.

يبقى لليل سحره على كل حال نديمي الوفي، الوحيد من يعتقني من الأشغال الكثيرة والمسؤوليات المضنية المتكررة حينا المتجددة أحايين أخرى.

فإذا ما اختفى الضياء وحلّ السواد وانتشر، وساد السكون، لجأت أنا إلى غرفتي لجوء الراهب إلى صومعته، أهرب من الفضائيات، من نشرات الأخبار، من العالم الذي أصبح مخيفا، أنشد صمتا وعزلة.. أقلب صفحات كتاب أو أحملق في الفراغ محاولة تناسي الهموم قبل أن أسلّم نفسي لنوم لذيذ يحرّرني من كل شيء، ولكن لا أكاد أضع رأسي على الوسادة حتى أنتفض مفزوعة، صوت قوي منبعث من الشقة المجاورة يبعثر سكينتي ويملأ قلبي خوفا وفزعا.

– أخرج من هذا الجسد.. أخرج من هذا الجسد.

يخفق قلبي بسرعة، أتمالك نفسي، تتكرر العبارة بإلحاح، أنتبه محاولة معرفة مصدر الصوت.

أدرك أخيرا أنه صوت التلفاز يعرض الرقية الشرعية على المباشر ويبدو أنه البرنامج المفضل لدى جاري وكان يزيد للصوت بصفة مبالغ فيها.

راح النوم، وتشوش الفكر، وارتجف القلب. بت أشعر وكأنني لم أعد وحيدة في غرفتي بل هناك من يزاحمني فيها ويبدد عليّ عزلتي، وكأن الصوت مزق حجاب العزلة ونزل في ذاك الغسق كالنازلة، وتراءت أمامي صورة تلك المرأة المريضة تتلوى ألما صورة وصوتا، وأدركت أنه لا مفر ولا سبيل إلى الراحة مهما بذلت ومهما انعزلت.

تكرر ذلك مرارا، أضرب الجدار الفاصل برفق ثم بقوة علّه يسكت التلفاز دون فائدة، كان الأمر مزعجا للغاية وكنت كلما صرخ الصوت: أخرج من هذا الجسد، أفزع أنا إلى مكان آخر أنام فيه.

ماذا لو أخطأ الجن الطريق واخترق الجدار، وحلّ في بيتي؟ لم يكن لفزعي ما يبرره لكني كنت أنزعج، ويعتريني شعور بالغضب ممزوج بخوف خفي، وفي كل ليلة كوابيس مرعبة أفيق منها وجسمي كله يتصبب عرقا، رؤى مفزعة جعلتني أهجر النوم وأنير الغرفة وأظل أحملق في السقف إلى أن يطلع النهار، فتتوارى المخاوف وكأنها لم تكن.

ويمرّ يوم آخر بانشغالاته ومتاعبه وأجدني ألجأ إلى سريري وإذا بصوت جاري يسمع بوضوح.

لم أكن أقصد أبدا التلصص أو استراق السمع لكن جاري يتحدث بصوت مسموع، ولا يفصل بين الشقتين إلا جدار ويتضح صوته أكثر ليلا كلما خلدت إلى النوم. ثم اعتدت الأمر إذ تبين لي أنه طاعن في السن وسمعه قليل ولم يكن يفعل ذلك بنية الإزعاج.

قتلت جدتي

فطيمة بريهوم
كاتبة جزائرية

منذ فتحت عينيّ في هذا الوجود، وأنا أراها في مكانها نفسه، بعينيها المتسلطتين، وبجلستها في وسط الغرفة تحيط بها لوازمها في نصف دائرة تكاد تمنع عنّا الحركة في الغرفة الصّغيرة: إبريق مائها وحذاؤها وشالها الذي تلفّ به رأسها من البرد أيام الشتاء في كلّ مرّة احتاجت إلى الخروج. لكثرة ما أحسستها تملك كلّ شيء، كنت أسمع صوتها يخرج من أواني البيت، وجدرانه وأرضيته وهي تعلّق على غسيل، وطعام، ولباس وكلام أمي. لا يعجبها أحد، نسيت تفصيلا آخر مهم، أيضا، لم أر يوما ابتسامتها!

لم تبهجها إلاّ عودة أبي مساء عندما يقبّلها قبل أن يذهب إلى المطبخ ليرى أمي. لا يمكن أن أنسى نظرة الانتشاء تلك، أبدا تنصبها ملكة بلا إكليل أو تاج.

لم يكن لأمي مكان تجتمع فيه بنا منفردة، فكلّ البيت كان مطبخا يستحيل ليلا غرفة ننام فيها نحن الخمسة معها

تدخّلت حتى في شكل الكراريس التي نشتريها، وفي الأصدقاء الذين يأتون إلينا وكم من مرّة ألّبت أبي على صديقاتي أنهّن يفسدنني!

وأمي لا تعيرها اهتماما كانت تحوّل تدخلها حيّة تقتطع كلّ يوم مزيدا من المساحات لسلطتها لتبسطها مفهوما ظلّ مضبّبا بذاكرتي عن التوازن الأسريّ بأسئلة كانوا يستغربونها منّي عن وجودها معنا؟.. وعمّن يتصرّف في البيت؟. فلم تغفر لي أبدا يوم أن سألت أبي: لماذا يبقيها معنا ولا يأخذها إلى دار عمي؟

أقامت الدنيا وأقعدتها، واتّهمت أمي علانيةً: كُلام كُبارنا عند صْغارنا.

والحقّ لم يكن لأمي مكان تجتمع فيه بنا منفردة، فكلّ البيت كان مطبخا يستحيل ليلا غرفة ننام فيها نحن الخمسة معها، وغرفة يتقاسمها أبي وأمي مع أختي وأخي الصغيرين. وعندما يئست من أن تسمع إجابة شافية قالت: إنّهم أخوالي! لم تكن هذه الواقعة إلاّ بداية صراع مرير لي معها بحكم أنّي أكبر إخوتي وأوّلهم إدراكا بالأمور، وبحكم ما كنت أتعلّمه في المدرسة التي أزعجها خروجي إليها يوميا.

أدركتُ ذلك باكرا ممّا بذلت من جهودٍ لإبقائي في البيت حتى أنّها ذات سنة تمارضت، وهي متأكّدة أنّ أمي ستستبقني في البيت لمساعدتها! فإذا اجتزت شهادة التّعليم الابتدائيّ أعلنتها صراحة – إنّ ساقيها صارتا أطول من ساقي أمها فأيّ عار يلحق بنا أن تخرج امرأة في طولها للشّارع كل يوم، أن تقرأ "البراوات(3)"، فهذا ما لم تلحق إليه فتاة في العائلة قبلها.

وقتها رمت أمي بصبرها، وطول بالها في حفرة لا بدّ أنّها كانت تنثل ترابها كلّ هذه السّنين وقالت: ما زلت شابة، وقادرة على بيتي وأولادي!

أمّا أبي فكما تعوّد قبّل رأسها، وبهدوئه أكّد أنّني ممتازة ولن يغفر له الله لو حرمني من العلم لتسكت عن الكلام وقتها، وتبدأ سلاحا جديدا لم أكن أحسب أنّها تقصده. فهي في ظنّي من السّذاجة التي لا يمكن أن توصلها إلى ربط كلّ ما فعلت بالماضي، لكنّي فهمت أنّ الحياة الإنسانيّة تعلّمنا الكثير عن علاقات القوّة والتّسلّط بين البشر، وأنّ كلّ ما نقرأه من تحليلات علم النّفس، في الحقيقة، لا يفعل سوى يحلل أسباب الصراع، ويطلق مسمّيات لمراحله ويقترح بعض الحلول لتجنّبه: ففي أيام لم أجد بعض كراريسي، واضطررت أكثر من مرّة لإعادة تدوين دروسي، وفي أيام أخرى كانت تمزّق صفحات من كتبي ترمي فيها أظافرها؛ لأنّه لا يجوز أن تبقى الأظافر دون دفن، بكلّ برود أجابتني لمّا قلت يا جدة هذا كتاب!

حين يئست من أن يوصلها هذا إلى هدفها، صارت لا تفوّت مدح كسرة ابنة عمتي والعشاء الذي جهّزته ابنة عمي حين أنجبت طفلا ذكرا، واشترى لها زوجها محزمة(4)، مرصوصة حبّاتها الثلاثون واحدة بجانب الأخرى، لاعنة هذه الكتب التي لا تلقى أين تضع أقدامها منها، كانت تقصد بما لا يحتمل الشّك ضربي في عمق أنوثتي.

لتظهر كلّ نقمتها بكلّ فتنتها، ودون ستر، حين حزت على البكالوريا، في هجر البيت. لم تقصد البيت الصيف كله، قسّمت أيامها بين بيت عمي وعمتي بحجة أنّها لا تطيق سكنى العمارات الحارة صيفا، مع أنّ عمي وعمتي سكنا سنوات من قبلنا في عمارات.

وراء حدود السؤال

فاطمة قيدوش
كاتبة جزائرية

تمتزج قطرات المطر على زجاج النافذة لتنزل متحدة محاولة في جهد إسقاط صور تتداخل في مخيلتي. أفكار تتناسل بشراهة وتتآكل بعدها، فيعانق بعضها الانتصار فتلتصق بجدار الذاكرة سياطا، والأخرى تنفلت فتتدحرج على جسدي الزجاجي منتصرة كذلك حين ينبعث رنينها كحبات لؤلؤ شارد. جسدي بارد، ورأسي يكبر ويثقل حتى يميل على كتفي، فأفشل في إقامته على الجسد. جسد مشوه منذ البداية.

منذ البدء لم أحس بالبرد يوما. لم يحدث هذا وأنا أجلس على ناصية العمر الطفولي.. أمسح الدمعات بأصابعي الهشة، المنتفخة والمحمرة.

ونحن نجلس طفلين كوكبين في ليل شتاء قارس، على أراجيح معلقة، فتخطف أنت يدي وترميها بين يديك، وتمدها من دفئك المفقود كذلك.. لم أحسّ بالبرد، لكن كنت أحسه الخوف يقطع شرايين القلب ويقطعني نصفين. فأفر من هروبي الدائم، تحت السرير، والحمام وفي خزانة المطبخ. أهز شظايا أعماقي وأنفضها في أعماقك، فتلمّها وترمم داخلي، وتمدني بقطعة من دفء أنخرط في مساحتها وأجلس زمنا. في أعماقك أرمي أعماقي فتفلح دوما في منحي فرحا عجيبا أضحك على إثره طويلا. هل هي سذاجة الطفولة أم الصدق الحقيقي؟

فرح آخر يتلاشى هنيهة حين تمطر ثورتي. في اللحظة ذاتها أثور وأغرس أظافري فيك. أخدشك، أترك مدنا دامية في كتفك، لكن صوتك يبقى يقلب صفحات الألم ويسقطها ويوقع انتصاره في نهاية مفكرة لا تنغلق.

نعم وحدك كنت تلمس حدود هزيمتي وخوفي.

فهل حقا كنت تدرك حجم تعبي حين تضمني إليك؟

وظل السؤال يكبر معي ومع جسدي الذي كبر بسرعة أدهشتني، ومد الآخرين بحيرة وفزع، حتى جدائلي امتدت وازدادت نفورا، ففضحني طولها الخرافي وسوادها الحالك، لأجدها اللحظة أكثر تمردا تشدني إلى جدران غرفة تقتنص حلمي.. وتذكرني.. وأكثر يذكرني هذا الهمس النسويّ العقيم الذي يصلني متقطعا وأحيانا مملا، فأتعب في الوقوف على معناه وبين تعب وآخر أحصد أكثر من تعب.

عروس جميلة!

لا فقط المساحيق تمنحها هالة.

وأمتص همسهن، نساء بارعات في صناعة الحديث، ألسنتهن أشواط عمر أقطعه، أكره فيهن هذا وأكثر، أكرهه في أمي حين تتحدث مع الجيران والصحون وشجرة تين بري، تتحدث بشراهة وعنف، تتمرد في حديثها، لكنها تكون صامتة بعد الغروب الذي يطبق عليّ حين أجد الغرفة تصغر وتصغر.

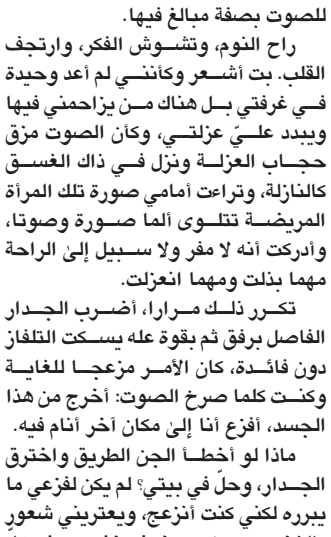

نعم وحدك كنت تلمس حدود هزيمتي وخوفي. فهل حقا كنت تدرك حجم تعبي حين تضمني إليك؟

ملكة الوقت

جميلة طلباوي
كاتبة جزائرية

عيناه المتورمتان لا تسعفانه لرؤية الطريق إلى الحمّام، يمشي كبطريق متمايلا يمينا وشمالا من شدّة الإرهاق والتعب، يرتطم بالباب، يمدّ يده مرتجفة يمسك بالمقبض، يفتح باب الحمّام، يتوجه مباشرة إلى المغسل، يفتح الصنبور، يغرق وجهه ورأسه الأصلع بالماء، يصله صوت زوجته تصرخ في وجه الأولاد وهي تدعوهم للذهاب إلى المدرسة، تأمرهم أن يقاوموا النعاس، تقول لهم مقولة أصبحت تتردّد في العمارة كلها: الله غالب.

يدس وجهه في المنشفة، يتأوّه من شدّة حسرته على أبنائه وعلى زوجته وقد حرمهم كلب الجار من النوم، لقد اشتاق إلى شخير زوجته البدينة الذي طالما أزعجه.

لا رغبة لديه في تناول القهوة التي أعدّتها زوجته قبل أن تذهب إلى بيت أهلها في الحي المجاور لتنام على الأقل لساعتين أو ثلاثة كي تتمكن من ممارسة حياتها العادية، وتحمّل مسؤولياتها تجاه بيتها وزوجها وأولادها. بالكاد يغيّر ملابسه، ويغادر لينزل إلى مقهى الحيّ بغرض بحث الأمر مع سكان العمارة الذين قرّروا الاجتماع لدراسة وضعيتهم المزرية إزاء هذا الكلب الذي نغّص عليهم عيشتهم بنباحه الذي لا ينقطع صباحا ومساء، وأكثر من ذلك أصبح يشكّل خطرا على السكان وأطفالهم، إنّها المرّة الثالثة التي يعضّ فيها طفلا، ولا أحد تجرّأ على تقديم شكوى.

كان نباح الكلب لا يزال يصمّ الآذان والأطفال يجرّون أقدامهم من شدّة التعب وهم ينزلون أدراج السلم، يهمس الصغير على ابن منوّر الحلاق في أذن أخته وهو يمسح المخاط النازل من أنفه بكمّ مئزره بأنّه قرّر قتل الكلب بأنّ يدسّ له السمّ في الطعام، ترتعش أخته من هول الفكرة، تمدّ يدها الصغيرة تضعها على فمه تسده وهي تنظر يمنة ويسرة خشية أن يكون أحد سمعه، تتعثرّ في الدرج الأخير وهي ترى موسى ينزل وهو يدس جسده النحيل في معطف رثّ، تلقي عليه التحية وهي تحاول إخفاء الصغير علي، يتوقفان عن المشي، تهمس في أذن أخيها: ألم تقل لنا أمّي بأنّ سي عبد الجبّار صاحب الكلب قوي، سيكسر أضلع من يقترب من كلبه. يطأطئ الصغير رأسه الملفوف في قبعة نسجتها والدته، تطوقه أخته بذراعها وهي تعرف ما ينتظرها من عقاب إذْ أنّها لم تراجع درس "الكَلَب" عن سبق إصرار من شدّة كرهها للكلاب ولكل ما له علاقة بهم، لقد أبلغت أمّها بقرارها إذا ما أقدم المدرّس على معاقبتها ستقول له: خلّصونا من كلب السي عبد الجبّار أولا ثمّ أعطونا دروسا حول الكلب والكلاب.

يظلّ موسى يتأمّل الطفلين بعينين أرخى جفنيهما النعاس وهما يمضيان بعيدا عن عمارة أرعبها كلب، لقد استحضر فيهما صورة أولاده الذين غادروا قبلهما إلى المدرسة، وهو لا يدري إن كان مدير المدرسة التي يدرسون فيها سيستدعيه مرّة أخرى ليقدّم له إنذارا حول حالة أولاده اللذين ينامون أثناء الدرس.

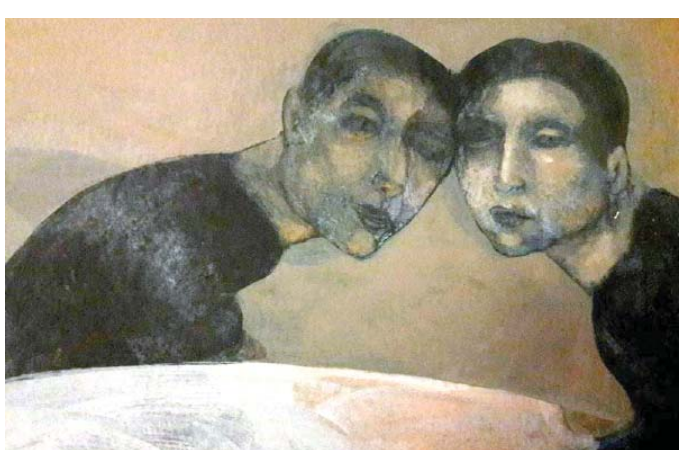

لوحة للفنان وليد نظمي